ابن سلام الجمحي ونظرية الطبقات :-

يعد كتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء) أول مؤلف نقدي موجود يستند إلى نظرية (الطبقات) ولأنه كذلك فقد اتبع ابن سلام منهجية واضحة جعلت بعض مؤرخي النقد العربي يرون فيه أول ناقد متخصص يصدر عن منهج مستقيم وروح علمية .

لقد وزع ابن أربعين شاعرا جاهليا على عشر طبقات ، في كل طبقة أربعة شعراء ، تلا ذلك مجموعة من الشعراء يبلغ تعدادهم أربعة وثلاثين شاعرا وزعهم على طبقتين واحدة أسماها طبقة (أصحاب المراثي) وعددهم أربعة ، وأخرى أسماها طبقة (شعراء القرى العربية) .

اختارهم على النحو الآتي : خمسة من شعراء المدينة وتسعة من شعراء مكة ، وخمسة من شعراء الطائف ، وثلاثة من شعراء البحرين ، وثمانية من شعراء يهود ... وبهذا ينتهي من الشعراء الجاهليين ، أما الإسلاميون فقد اختار منهم أربعين شاعرا وزعهم على عشر طبقات ، وفي كل طبقة اربعة شعراء ، وقد خصص الطبقة التاسعة بالرجاز ، وبذلك يكون مجموع من ترجم لهم ووزعهم منازلهم التي يستحقونها مائة وأربعة عشر شاعراً .

معايير نظرية الطبقات :-

لقد اعتبر ابن سلام الأساس التاريخي هو المعيار الرئيسي في توزيع الشعراء إلى طبقات ، فينظر إلى الشعراء ما قبل الإسلام بمعزل عن الإسلاميين لأنهم يشكلون حقبة أدبية متميزة في أسلوب حياتها ولغتها وشعرها .

وكذلك الحال مع الشعراء الإسلاميين والمحدثين أيضا ، ومع ان النظرة التاريخية هذه حقيقة لا يجوز التغاضي عنها فان اعتماد ابن سلام الأساس التاريخي لا يشكل غير اعتراف بحقيقة تميز شعراء كل حقبه من الأخرى بجملة خصائص ، وربما في إبراز اثر السابق على اللاحق ، لكن الأساس الفني الذي يميز الشعراء بعضهم من بعض في الطبقة الواحدة أو في الطبقات المتعددة هو الأهم ، فهنا تبدو الممارسة النقدية السليمة لان معيار المفاضلة ليس الزمن أو التاريخ

وإنما الفن ، والحقيقة ان كتاب الطبقات كله قائم على تلك المعايير التي تضع الشاعر في طبقة دون أخرى .

وإذا أردنا الدقة قلنا أن الكثرة والجودة هما المعياران اللذان دفعا ابن سلام لأن يضع شاعرا ما في المرتبة الأولى وآخر في المرتبة الثانية ، وعلى هذا الأساس فضل ابن سلام حسانا على شعراء المدينة الخمسة لأنه كثير الشعر الجيد ، ومما أخر شعراء الطبقة السابعة الجاهلية وذلك لأن في أشعارهم قلة فذلك الذي أخرهم .

وإذا كانت كثرة الشعر وطول القصائد لا تحتاج إلى توضيح لأنها مسألة كم إلا أن اقترانها بالجودة دليل مقنع على فحولة الشاعر وطول باعه في النظم.

فمن مقاييس المعنى الابتداع والجدة والسبق ، ولذلك اجمع النقاد على أولوية أمري القيس لأنه أول من استوقف الصحب وأبكى الديار ، وقيد الأوابد وأول من شبه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعقبان .

أما مقاييس البناء والتركيب واللفظ فمنها إحكام الشعر أي ضعف البناء أو رقته ، وليس من شك في أن هذه المعايير استخلصت بالتحليل الدقيق والنظر المتمعن لشعر الشعراء الذين ذكرهم في الطبقات فهي تمثل الخصائص العامة لشعرهم ، ومع هذا فالاختلاف في تقويم الشعراء الكبار وتنزيلهم منازلهم التي يستحقونها ضمن طبقاتهم .

وهذا يعكس اتجاهات النقد في القرن الأول والثاني للهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، وهي عوامل يتحكم فيها أحيانا الذوق الشخصي والميل والهوى ويصور ابن سلام هذا قائلا : (ان علماء البصرة كانوا يقدمون أمرأ القيس بن حجر ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى وان اهل الحجاز يقدمون زهير والنابغة) .

لقد كان ابن سلام أول من بحث قضية الانتحال بحثا منظما مستفيضا في كتابه طبقات فحول الشعراء ، وعزا أسباب الوضع إلى عاملين أساسيين هما : العصبية القبلية ، والرواة الوضاعين ، فقد رأى أن بعض القبائل كانت تتزيد في أشعارها ، وتنحل شعراءها شعرا لم يقولوه ، فأوضح ذلك في قوله (لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومأثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر أيامها ومأثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر

وقائعهم ، وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على السن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار) .

وقد بين أبن سلام ما أضافه القريشيون في شعر شعرائهم فطولوا قصيدة لأبي طالب في مدح الرسول (صلى الله عله وسلم) ، وقد لاحظ ان بعض أبناء الشعراء الأعراب كانوا يفدون إلى المدن ويستنشدهم الرواة شعر آبائهم فينشدونه ، فإذا نفذ ما لديهم زادوا في الأشعار نحو ما فعل داود بن متم بن نويرة ، فقد استنشده أبو عبيدة وانه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار وضعها ، وإذا الشعر دون شعر متمم .

وقد نبه اين سلام على الرواة الكذابين كحماد الراوية ورفض مروياته وبين فساد روايته وحذر منه ، وذكر صنفا آخر من الرواة ، كانوا يحملون الشعر الزائف هم رواة الأخبار والسير ، وأشار إلى ابن أسحاق راوي السيرة النبوية ، إذ لم يرضى أبن سلام بلعذر الذي قدمه أبن أسحاق بأنه لا علم له بالشعر يؤتى به فيحمله ورد عليه بقوله (ولم يكن له ذلك عذرا ، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ...).

ولكن ذلك الشعر المصنوع لم يكن من الكثرة بحيث يضطرب الدارسون في معرفته ، أو يتخذون القليل الفاسد وسيلة لاتهام الشعر الجاهلي عامة .

المآخذ على نظرية الطبقات عند ابن سلام :-

1.ان ابن سلام اغفل ذكر شعراء إسلاميين وأمويين كبار مثل الكميت والطرماح وعمر بن أبي ربيعة ، ثم أنه لم يتعرض لمعاصريه من الشعراء امثال بشار بن برد وأبي نؤاس وأبي العتاهية .

2.أنه لم يتعرض لمكانة شعراء القرى العربية كما أنه لم يورد أخبار أو قدم تحليلا لبعض الشعراء بل اكتفى بسرد الأسماء .

3.ان ملكة أبن سلام الأدبية في تحليل الشعر لا تكاد تظهر .

4. أن ابن سلام جعل الراعي النميري مع الفرزدق وجرير والأخطل دون حجة مقنعة .

5. أن نظرية الطبقات جليلة حقا ولكنها تظل قوالب إّا هي لم تعمد الدراسة والتحليل وتبيان الأسس المشتركة والسمات الغالبة فهي نظرية صعبة وقد آثر مؤرخو الأدب تحاشيها فرارا من تلك الصعوبة .